جماليات أعمال الفنان الامريكي روبرت راوشنبيرغ

ولد الفنان الأمريكي روبرت راوشنبيرغ في مدينة تكساس الأمريكية عام (١٩٢٥)، درس في معهد الفن في ولاية كنساس عام (١٩٤٦). ابرز الفنانين الممهدين للفن الشعبي باستعماله لإمكانات الصورة الفوتوغرافية والتلصيق ومواد التجميع كما كان متبعاً عند الدادائيين. درس في أكاديمية جولييين في باريس في أواخر الأربعينات، ثم في كلية بلاك ماونتين، ورسم في مطلع الخمسينات سلسلة من اللوحات البيضاء، حيث كانت الصورة الوحيدة الظاهرة في خيال المشاهد على اللوحة، ثم رسم بعد ذلك سلسلة من اللوحات السوداء تماماً، ولم يكن أي من هذين النوعين من اللوحات ابتكاراً متفرداً، فقد رسم الفنان الإيطالي لوشيو فونتانا سلسلة من اللوحات البيضاء في عام (١٩٤٦)، وعرض الفنان الفرنسي ايف كلاين أول مجموعة أحادية اللون في أعماله في عام (١٩٥٠). بدأ راوشنبيرغ بعد هذه التجارب الاختزالية في التحرك نحو التوليف في التصوير Combine Painting، وهو نوع من الابتكار يتم فيه الجمع بين السطح الملون وأشياء مختلفة تثبت على السطح ذاته، واحياناً تتطور اللوحة إلى أشياء ثلاثية الأبعاد حرة الحركة من مثل عمله (العنزة المحشوة) الشهيرة التي ظهرت في معارض فنانين أمريكيين معاصرين، وقد تكونت احدى الأعمال من (جهاز لاسلكي)، وأخرى من (منبه)، كما استعمل راوشنبيرغ صوراً فوتوغرافية تم طباعتها على قماش الرسم. وترجع الفلسفة الجمالية وراء ذلك في جوهرها لفلسفة جون كيج، المؤلف الموسيقي التجريبي الذي قابله راوشنبيرغ في نورث كارولينا، وتهدف إلى تشتيت عقل المشاهد وانفتاحه، أي أن الفنان لا يبتكر أو يبدع شيئاً مغلقاً أو منفصلاً، بل جعل المشاهد اكثر انفتاحاً واكثر وعياً بنفسه وبيئته. كان أول معرض خاص بهِ سنة (١٩٥١) في صالة (بتي بارسون) في نيويورك. يُعِد الرسم على أساس علاقة وطيدة ليس بالفن وحسب، بل بالحياة أيضاً، لذلك كان نتاجهِ مرآة لمواقفهِ الحياتية، مستوحياً موضوعاتهِ من أحداث الحياة الآنية المعيشة. كما يُعد احد ابرز الفنانين الذين يمتلكون غزارة الأفكار والاندفاع للعمل. ولعب دوراً أساساً في حركة الفن الما بعد حداثية (البوب آرت) ولعقود متعددة. وحماسهِ أدى بهِ لاحتضان أشياء الحياة اليومية، لصور الفوتوغراف، ووسائل الإعلام، والثقافة الشعبية، فضلاً على نمط التجريب المتعدد. ومنذ عام (١٩٥٤) بدأ راوشنبيرغ عمله التأليفي (التجميعي) الرائع المكوّن من مواد غريبة ممهّداً بذلك لجمالية جديدة. توفي في عام (٢٠٠٨).

نشأ أسلوب جديد من أساليب الفن في مطلع الستينيات، كان على الفنانين أن يستيقظوا على الحياة التي يعيشونها بالذات، وأن تتجاوز الحدود وتردم الهوة، وقد عُني هذا بهدم الحواجز القائمة بين الفن والفعاليات الإنسانية الأخرى، من مثل: التكنولوجيا الصناعية، والأزياء،

والتصميم، وهذهِ الرؤية تحفّز الفنانين على رفع حدود اختصاصهم والعمل معاً؛ رسامين، ومؤلفين، وموسيقيين، ومخرجين لإنتاج فنون بأساليب هجينة (تركيبية)، وعروض مختلطة تتجاوز اللوحة بأسلوبها التقليدي الممل. ثم السعي لأساليب فنية اغنى واكثر تعدُّداً للوجود. هذهِ الأساليب بدت اكثر شيوعاً وأوسع استثماراً للابتكارات وحقول التجريب المتواصلة للمواد الجديدة (الغريبة)، لذا أصبحت مهمة الفنانين التعايش مع الأشياء الخارجية بحثاً عن قيم جديدة ومفاهيم جمالية مغايرة، محاولين التوجّه إلى مدى ابعد بوساطة خبراتهم التجريبية. فالفنان الما بعد حداثي بدأ يشعر بالحرية لاستعماله أدوات التكنولوجيا المتاحة له لاستبصار أفاق فنية وتصوراتية جديدة يعدل بها مناهج القدماء في استعمال زيادات المجتمع الاستهلاكي، وان كل عمل ما بعد حداثي عليهِ أن يحوي مظاهر ثقافة ما بعد الحداثة كافة، وعناصرها الرديئة منها والجيدة على وفق اعتقاد روبرت راوشنبيرغ عندما يضمن ما يراه حوله من مثل، أجهزة التلفاز، المجلات، ومهملات مرمية ونفايات وزيادات العالم... فهذه الاعمال في مجملها الواقع ذاتهِ. فالأسلوب التجميعي اضحى صيغة فعّالة سعى الفنان للعمل بمقتضاها، فأتاح نقطة انطلاق مهمة لمفهومين هما الحدث والبيئة. لذا بدأ راوشنبيرغ بالتوجّه نحو أسلوب الرسم الخليط في نسق جمالي وإبداعي مختلف تماماً يمتزج فيهِ السطح التصويري الملون بالفرشاة مع أشياء متنوعة مثبتة على السطح لتتطوّر الرسوم إلى أشياء ثلاثية الأبعاد، من مثل: العنزة المحشوّة، وأجهزة الراديو، فضلاً على استثماره لساعة كبيرة، مع إدخال الصور الفوتوغرافية بتقنية الكولاج والطباعة الكرافيكية بوساطة الشاشة الحريرية على قماشة اللوحة. ومع اتباع هذا النمط من الأسلوب الذي قوبِلَ بالترحيب والحماسة من قبل الجمهور، أخذ المجتمع الأمريكي يتفهّم طبيعة التكوينات الإسلوبية لفناني البوب، وبدأ يظهر لهم نمط التراكب الأيقوني والعلاماتي التي تزخر بها مفردات المنجز الفني لدى راوشنبيرغ والمتكوّنة من واقع المجتمع الاستهلاكي والرأسمالي، وسعيهِ لتقديم موضوعات الثقافة الشعبية لتحل محل الفن الرفيع. حاول راوشنبيرغ أن يجمع عناصره من مصادر مختلفة متضادّة في صورة واحدة، ذلك بقصد خلق معنى جديد ومفاجئ، كما استعمل الشاشة الحريرية ليكرر تفاصيل غير مرتبطة لكنها مستمدّة من الفن والحياة على سطوح تكون ضخمة أحياناً، ولكي يمكن الربط بين التفاصيل المُكرّرة كان يمر عليها ببطش (سائل مخفف) من الألوان.

بدأ راوشنبيرغ بميلهِ لنزعة دوشامب التمردية يعيد النظر للعلاقة المضطربة بين الفن الرفيع والفن الشعبي، فأعمالهِ تُعَد حلقة وصل بين النظرة المتسامية المتعالية للتعبيرية التجريدية وأسلوب التهكُّم والسخرية النقدية وطرائق الأداء لأسلوب فن البوب آرت، فتعدّد الأساليب المتبعة من قِبل روبرت راوشنبيرغ من مثل: الكولاج، والتجميع، والرسم الخليط، واستعمالهِ للصور الفوتوغرافية كتصوّر خيالي مثير، وبوصفها وثيقة مصوّرة للأشياء الحقيقية، مروراً بعمليات التجريب المختلفة، والتكرار أو إعادة الترتيب التراكبي، والاختزال لمفردات العمل الفني كما في

عمليات المونتاج والتلوين على التوالِ باستعمال أساليب تقنية متعددة من مثل: الطباعة بالشاشة الحريرية أو الرش، وطباعة الإستنسل، وغيرها والتي قد تبدو في النهاية مجرّد إشارات لأشياء مبهمة مع فقدان جزء من خصائصها الوصفية. وفي نطاق الحقل التجريبي انجز الفنان راوشنبيرغ عملهِ الفني بعنوان (سرير) باستعمال إسلوب الأشياء الجاهزة من مفروشات وأغطية مُضاف إليها أصباغ ملونة بطريقة السكب والتقطير. لقد منح للأسلوب التجميعي جماليته وسمح للمعاني القابلة للتبدّل، إذ يتوقف الأمر في عملية التفسير على القيم الثقافية وعلى رؤية المتلقي، فضلاً على استعمال الإسلوب الارتجالي الذي يقبل التقاطعات والتقاربات بوصفه رؤية جمالية تثير مواقف نقدية.

يرى الناقد الفرنسي (آلان تورين) أن القوة المسيطرة لعصر ما بعد الحداثة تمثّلت بثلاث قوى هي وسائل الإعلام، والتقنية، والأسواق. مع إعادة النظر في مفهوم العقلانية لعصر التنوير، فالناقد أخذ يبحث عن كل ما هو زائل، ومتشذّر، ومنفصل، كما واتجه الفن المعاصر إلى تجسيد الحقيقة الملموسة فيما سمي بمذهب (الواقعيين الجُدد) الذي أراد إزاحة الحواجز بين فروع الفن بوساطة إدخال تقنيات متعدّدة بوصفها شكلاً من أشكال الفن مع تقنيات شكل فني آخر، وأُبدعت تركيبات تستجيب لحاجات الفنان أو النقاد أو جامعي الأعمال الفنية المغامرين أو الجمهور، وهنا بوسع الفن أن يصبح مجال للتأمل العقلاني النقدي وموضوع للتساؤل من خلال أعمال يُعّبر عنها مباشرة بصورة فوتوغرافية مع أوراق مطبوعة على الآلة الكاتبة، وهذا أعطى للفنان الفرصة بتوسيع منظومة التجريب بوصفه حقيقة مباشرة مع العالم. فإلى جانب هذه الوثائق الفوتوغرافية المتنوعة المتباينة في موضوعاتها الموضحة أو المموهة أحياناً بالخطوط المضافة إليها، يؤكد راوشنبيرغ إن اللوحة تكون اكثر واقعية إذا تكونت من عناصر العالم الواقعي، فادخل الفنان إلى اللوحة أشياء حقيقية من مثل: مخدة، وفراش منبوش، ونسر محنط، وكرسي... جاعلاً منها موضوعاً قائماً بذاته، وباستعماله لهذه العناصر المتجزأة من العالم الواقعي، وإعادة صياغتها؛ إنما أراد التأكيد على حالة راهنة والتثبت من واقع نشكل جزءاً منه، وهنا كما يشير المؤلف الموسيقي جون كيج الوثيق الصلة براوشنبيرغ يصبح الشيء حدثاً لا رمزاً.

سعى راوشنبيرغ لإنجاز كثير من ابتكاراته بخيالات تحمل دلالات ذات مستوى عالٍ من الأسلوب التقني بهدف توحيد المساحات الملوّنة المسطّحة لموضوعات أضحت مفرداتها ثلاثية الأبعاد. بمعنى أن خصيصة المواجهة التي يعتمدها راوشنبيرغ بينهُ وبين خاماتهِ المتنوعة، تستحث فعل المخيلة لإنتاج وتدفق عدد من الصور الفنية التي تتمتّع بمستوى عالٍ من الديناميكية، لذا طوّر أسلوب التجميع الذي يمزج فيهِ الأشكال العادية ليُعيد إنتاجها ويوحِّد خصائصها، بهدف تحدّي الأساليب التقليدية التي تفصل بين الفن الرفيع والثقافة الجماهيرية. أي إن ما فعله راوشنبيرغ هو ببساطة إعادة إنتاج، والتي هي الصفة التي تميز فنان ما بعد الحداثي

العدمي الرافض لكل المعايير الثابتة للحكم الجمالي بوصفها معايير سلطوية، لكي لا يتبقى للحكم ما بعد الحداثي غير إمكانية للحكم على مشهدية المشهد لا أكثر.

لقد باتت المنظومة الإسلوبية التي اعتمدها راوشنبيرغ في تجميع وتركيب منجَزِهِ الفني مُعبّرة عن ثقافة مجتمعية معاصرة تلوّنت جوانبها العلميّة والمعرفية والفنية (الجمالية)، فضلاً على لِهاثِها خلف الإنتاج من الخامات الاستهلاكية ومعطيات البيئة، ومحاولة اعتماد تأليفات إلصاقية وتجميعية من تحليل وتراكب الخامات، واندماجها بتراكمات مادية متعدّدة، وإحالتها إلى منجز فني توسّعت تشكيلاتهِ، لتشمل خليط لعناصر أيقونية ومفردات ذات دلالات رمزية، وهي بمجملها أصبحت تمثّل أسلوب البوب آرت، فأعطى انغماس راوشنبيرغ في هذا الأسلوب الفهم الكامل والرؤية الشاملة لإدراك المنجز الفني بمفرداتهِ وعناصرهِ ورموزِهِ التشكيلية التي باتت تحاكي المجتمع الأمريكي وحقيقتهِ المدمجة بالأنظمة الرأسمالية والاستهلاكية، فاليوم وبشكلٍ مباشر أُدخِلَ إلى العمل الفني خامات من الواقع في شتى مظاهرهِ لِتُفصِح عن الشائع، والمبتذل في الوسائل الدعائية والإعلامية.